

الثقافة سلاح الوجود

سامي كنعان

الكلمات المفتاحية: سامي كنعان، الثقافة، الدين، الإسلام، الأخلاق، النموذج.

علينا أن نبحث عن المعرفة لأنّ الله جهزنا بكل الوسائل لبلوغ المعرفة، وكما نبحت عن الماء والغذاء علينا أن نبحت عن الثقافة. والثقافة يجب أن نأخذها من منابعها الأصليّة فهذا المقاتل والمجاهد كان يتمتّع بهذه المعنويات العالية وبهذا المعتقد كان هذا نتيجة التصاقه بالقيم الأخلاقيّة والمعتقدات الإسلاميّة وبالتالي أيّ أناس يملكون مثل هذا الإيمان لا يمكن لأيّ جهاز إسرائيلي أمريكي، أو غيرهم أن ينال منه منال لأنه محصن بهذه الثقافة والروحيّة والمعتقد.

لدينا مشكلة في الثقافة في الإسلام علينا أن نبحت في الحلول علينا أن نوجد حالة ناظمة لرجال الثقافة ورجال العلم حتى نكون موجودين في هذا الجو المتلاطم الغير عادي والهجمات المتغيرة والمتكررة عليه وفي أشدّها هذه الفترة. وبعض الثقافات خاصة الثقافة الغربيّة التي تترأسها أميركا عن طريق العولمة لها فلسفتها ولها معطياتها ولكن عندما ننقل الثقافة من مكان الى آخر نقلها كتجربة إنسانيّة ولكن أميركا إذا لاحظنا إنّها تفرض علينا هذا النوع من العولمة والثقافة، والثقافة عادة لا تفرض بالقوة وأميركا حقيقة تفرضها علينا فرضاً عن طريق العولمة إمّا بقوة الإعلام أو غيرها كالاقتصاد وعندما عجزت عن جميع الوسائل لجأت إلى القوة العسكرية، لا ولن تستطيع أن تستأثر هذا الفكر من عقولنا وقلوبنا وأفئدتنا.

نحن نرى بأنّ الثقافة في هذا العصر وخاصة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر أي عند بدء الثورة الصناعيّة واكتشاف الآلة البخارية إلى هذا العصر التكنولوجي، إذا لاحظنا من خلال مائة سنة تقريباً، نرى بأنّ المذاهب الفلسفيّة ظهرت بكثرة وأخذت تناقض بعضها البعض، وكلما جاءت نظرية ألغت النظرية التي سبقتها.

إذا دققنا بهذا الأمر نرى بأنّ لا خلاص للبشريّة الى أن وصلنا إلى الحداثة وما بعد الحداثة، حقيقة الأمر لا يمكن للإنسان أن ينال الشهادة إلا بعد أن يتمتّع بالثقافة الإسلاميّة الأصيلة التي كانت من السيرة النبوية والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

هناك مصلحة حقيقية لهؤلاء بأن يقضوا على الثقافة التي نتمتّع بها، وأنا برأيي بأنّ من أخطر الأشياء التي نتعرض لها هي دولتان في العالم هي "إسرائيل" و"أميركا" لأنّهما اعتمدتا ثقافة الاقتلاع، وبصيغة أخرى يقولون أنّنا لسنا مضطّرين لأن ننتظر الضعفاء ليلحقوننا، وعملياً الموضوع القيمي والروحي والأخلاقي ليس من حسابات على الإطلاق بل هي مادية محضة أمّا البعد الأخلاقي والبعد الإنساني والبعد القيمي ليس موجود عندهم على الإطلاق.

هنا أودّ أن أتعرّض لموضوع جدّاً مهمّ تعرّض له، أنا برأبي أنّه حتى الانتصار الذي حصل لا يقلّ أهميّة عن الانتصار العسكري وهو الانتصار الأخلاقي والقيمي حتى أثناء الحرب وفي أشدّ ضراوة الحرب، كان لدينا حسابات للقيم وللأخلاق، وكما لاحظنا حتى أثناء الحرب وفي أشدّ ضراوة كان هناك لدينا حسابات خاضعة للقيم وللأخلاق.

حتى من قبل عندما أرادت المقاومة الإسلاميّة أن تغتال العميل عقل هاشم سمعنا كلنا بأنّه كانت هناك أكثر من محاولة لاغتياله وكان يصل فوق العتبة المخصصة للانفجار ويكون معه طفلة أو أنّجته طفلة تجاهه تتوقف العملية حتى لا يموت هذا الطفل لأنّه يحمل إثم أبيه، أو زوجته، أو غيرهم. كانت هناك عدة محاولات الى أن استفرد بشخصه على هذه العتبة وانفجرت، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على مدى الأخلاقيّة العظيمة التي تتمتع وتتمتع بها المقاومة الإسلاميّة.

نعود لموضوعنا أنّ القيم التي تتمتع بها المقاومة الإسلاميّة هي قيم أخلاقيّة إسلاميّة، من المنبع الأصيل، عندما نرى بأنّ ثقافتنا وإنسانيّة الإنسان في ثقافتنا الإسلاميّة تعود قليلاً إلى الإمام "علي" في نهج البلاغة، تكلم في أحد الخطب عن "عقيل" شقيق الإمام "علي" عليه السلام، كان فقير الحال وكثير العيال وهو فوق كل هذا كان ضريباً، وعندما كان يوزع الإمام عليّ عليه السلام بيت المال يقترب منه ويطلب منه صاعاً آخر، عند هذه الحادثة نرى ما هي أهميّة إنسانيّة الإنسان في الإسلام، هنا يقول الإمام عليّ عليه السلام خطبة رائعة جدّاً يقول في مقدمتها:

"والله لو أبيت على حسك السعدان، أو أجزّ بالأحبال مصفّداً أحبّ إليّ أن ألقى الله ورسوله ظالمًا ما لي ولنفسى ... هنا يدخل في الموضوع... لقد رأيت عقيلًا قد أملق حتى استماحني من برّكم صاع فأصغيت له سمعي فظنّ أنّي أبيع له ديني وأتبع قيادتي... "

من هنا نرى أنّ المنبع الثقافي وهذه الأخلاقيات عندما نحن نتوغل وندخل الى عمق هذا الفكر أو نطلّع إلى جوانب هذا الفكر نرى أنفسنا بالقدر الكبير في التقصير، فكر رائع جدّاً، وفي تقديري لا يمكن الوصول إلى راحة إلا بهذا الفكر.

البشريّة تتخبط بمنّةً وشمالاً وبكلّ الاتجاهات وبالنهاية هذا الفكر الإلهيّ المحسّد في هؤلاء الأشخاص هو هذا الفكر السائد الذي يحقّق للإنسان سعادته في الدنيا وفي الآخرة.

فعلينا العودة إلى المنابع الأساسيّة للفكر، عندما نقول هذا الكلام لا نقوله للمسلم فقط، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام عندما يقول لمالك الأشتر يقول له: "وليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك

هواك وشحّ عمّا لا يحلّ لك إنّما الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت واشعر قلبك الرحمة للرعية واللفظ بهم والمحبة لهم إنّهم صنفان إمّا أنّك في الدين أو نظيرًا لك في الخلق...".

عندما نقول هذا الكلام إنسانيّة إنسان بشكل عام بغضّ النظر عن دينه وعن معتقده وعن لونه هذه لها علاقة ما بينها وبين ربّه. لكن نحن نقول العلاقة الإنسانيّة على الأرض، حقيقة أنّ هذا الفكر كلّما توغلنا كلّما وجدنا السعادة أكثر، وأرى أنّه ليس هناك أديب أو مفكر أو كاتب أنتج دون أن يمرّ بهذا الفكر.

حقيقة لدينا الأفكار الكثيرة ولدينا الشخصيات العظيمة، لدينا نهج البلاغة ولدينا مصحف فاطمة ومسائل الحقوق للإمام جعفر الصادق عليه السلام، جامعة متحرّكة بما للكلمة من معنى حتى قرأت من فترة قصيرة بأنّ كانوا رجال علماء إنكليز يحلّلون شخصيّة "جابر بن حيّان" ويقولون وما "جابر ابن حيّان" إلا أسطورة وضرب من الخيال لماذا؟

لأنّ الكمّ الكبير من المعلومات التي طرحها العلمية كما نعلم "جابر بن حيّان" كان رجل علم نظريات فكك الذرة إلى عشرة أجزاء، أول من أوجد الأحماض الكيميائيّة، بحاجة لشخصيّة تعيش عشر أضعاف العمر الذي عاشه "جابر بن حيّان".

ماذا يقول "جابر بن حيّان"؟ يقول: "والله ما كنت عند سيّدي جعفر الصادق إلا كاتبًا لا أزيد حرفًا ولا أنقص حرفًا إلا بعد الرجوع به" فهذه علوم الأئمّة الأطهار.